أبحاث المعهد الأثري الألماني

في دمشق

١٩٨٠ - ١٩٨٢

ميكايل مانيكه

تعريب وتلخيص قاسم طوير

للمعهد الاثري الالماني في برلين ماض طويل في التنقيب عن الاثار في الجمهورية العربية السورية (منذ ١٩٥٢) ونظراً للاهمية الكبيرة التي تتمتع بها الجمهورية العربية السورية في مجال الاكتشافات الاثرية فقد تفضلت السلطات السورية بالسماح للمعهد الاثري الالماني في برلين بأن يقيم له فرعاً في دمشق اسوة بفروعه المنتشرة في عواصم المشرق والمغرب وكان افتتاح فرع المعهد في دمشق في ١٩٨٠، ومنذ ذلك الوقت يتعاون المعهد مع المديرية العامة للآثار والمتاحف في مجال التنقيب والتحري والبحث الاثري وفيما يلي نعرض نتائج هذا التعاون بين ١٩٨٠ - ١٩٨٣.

١ - الضمير

تبعد الضمير مسافة ٤٥ كم عن دمشق، وهي تقع على الطريق العام الواصل بين دمشق وتدمر. ينتصب في قلب النسيج العمراني لبلدة الضمير الحالية بناء أثري فخم يعود الى الفترة الرومانية (القرون الاولى بعد الميلاد)، إذ يبلغ ارتفاعه حوالي ١٧م وتصل ابعاده إلى حوالي ٢٣ × ١٦,٥٠م. غير ان هذا البناء الاثري شبه الكامل لم يستوف الدراسة العلمية التي يستحقها، وكان الرحالة الاثريون الاوائل أمثال برونو ودوماسيفسكي وتيلر وآمي قد شملوا هذا البناء اثناء مسحهم لآثار المنطقة في مطلع هذا القرن غير انه لا يوجد اجماع فيما بينهم حول تاريخ هذه الأبدة الشامخة. والآن تقوم السيدة برومر باسم المعهد الاثري الالماني بالتحري المنهجي في هذا المكان.

يتمتع البناء بمدخلين متوازيين في الضلع القصير، ويعلو كلاهما قوسان عظيمان، ويفضيان إلى ردهة تتمتع بدورها بمداخل كبيرة تقود الى الحيز الداخلي المربع الشكل تقريبا. تعزز زوايا البناء من الخارج أربعة ابراج وهي مؤلفة من عدة طوابق، ومقسمة في الداخل الى عدد من الغرف باستثناء البرج الجنوبي الشرقي الذي يحتوي على درج يقود الى الطوابق العليا والى سطح البناء. يزين وجوه الجدران الخارجية للبناء عضادات ملتصقة، وتحمل تيجاناً مركبة (دوري وكورنثي). وهي بدورها تحمل كورنيشاً ضخماً.

تصف الكتابات اليونانية اللاتينية المنقوشة على الجدران ان هذا البناء كان معبداً لكن البناء بالاصل كان بوابة للمرور يبدو وكما تشير الكتابة انه تحول الى معبد في فترة لاحقة. ومع هذا لم يبق من تلك البوابة الا المدخلين المتوازيين. وتجدر الاشارة إلى أن بوابة ذات مدخلين تعتبر نموذجاً فريداً وليس لها مثيل في تاريخ العمارة الرومانية.

قامت بعثة المعهد في الموسم الاول لعام ١٩٨١، بإزالة الانقاض عن المدخل الشرقي ومن داخل البناء كما قامت بتدعيم الدرج في البرج الجنوبي الغربي وبذلك صار من الممكن الوصول الى الطوابق العليا والى السطح. وفي الموسم الثاني لعام ١٩٨٣ قامت البعثة بإزاحة الانقاض المتراكمة حول البناء من الخارج (بلغ ارتفاع الانقاض التي تحجب الاقسام السفلية للبناء حوالي ٥ م).

تدمر:

يشترك المعهد الاثري الالماني الممثل بشخص الدكتور شميت - كولونه، مع المديرية العامة للآثار والمتاحف الممثلة برئيس دائرة آثار تدمر الاستاذ خالد الاسعد، منذ عام ١٩٨١ في الكشف عن معالم مدفن ضخم في المقابر الغربية بتدمر، تبلغ أبعاد المدفن ١٨×١٨م، وكان قد تهدم كلياً بفعل الزلزال في الازمنة القديمة، وظهرت في الانقاض أكثر من ٧٠٠ قطعة حجرية منحوتة تؤلف حوالي ثلث البناء وقد تم نقل تلك القطع وترقيمها بهدف اعادة المدفن إلى ما كان عليه. وذلك في ضوء الدراسة الهندسية التي يجري اعدادها.

يعتبر هذا المدفن من أكبر المدافن المعروفة في تدمر حتى الآن، ولسوء الحظ ان ساكف المدخل الذي يحمل نقوشاً كتابية كان محطماً وبالتالي سنظل نجهل اسم باني المدفن وتاريخه. لكن المدفن يتمتع بثروة زخرفية هائلة واستناداً الى اسلوبها نرجح أن يعود تاريخ المدفن الى حوالي ٢٠٠ ميلادية.

منطقة القصور العباسية في الرقة/ الرافقة:

أجرى المعهد الاثري الالماني بالتعاون مع دائرة آثار الرقة تنقيبات عاجلة خلال ١٩٨١ و١٩٨٢. في السهل الواقع إلى الغرب من تل البيعة حيث تشير الصور الجوية الى وجود معالم معمارية واضحة وقد شملت التنقيبات مساحة ١٠٠×١٢٠ م وظهرت معالم معمارية عباسية مؤلفة من قاعات ثلاثية تطل على باحة في الشمال. أما الى الشرق من هذا المكان فقد ظهرت باحات مرتبطة مع مجموعة معمارية.

إن كافة هذه المعالم مبنية من اللبن ومطلية بالجص الابيض، وكانت الابواب والنوافذ محاطة باطار من الزخارف الجصية الشبيهة بمثيلاتها المكتشفة في القصور العباسية المجاورة. وبالرغم من أن معظم النقود الملتقطة في هذا المكان عباسية المصدر الا أن بعض النقود الايوبية المختلطة فيها تشهد على استعمال هذه المباني في العصر الايوبي.

أجرت البعثة أسباراً استكشافية في بقعة تقع الى الغرب من المكان السابق وبالتحديد بمحاذاة الطريق العام الذي يتجه من الرقة نحو تل أبيض، وقد ظهرت معالم معمارية عباسية يصل ارتفاع ما تبقى من جدرانها إلى حوالي ثلاثة امتار، وقد عثرت البعثة على بقايا زجاجية ملونة لعلها كانت جزءا من نوافذ معشقة بالزجاج. كذلك أجرت البعثة اسباراً استكشافية أخرى في منطقة تقع على بعد ٨ كم الى الشرق من مدينة الرقة وقريبة من نهر البليخ، وتشير الدلائل الاولى الى وجود بناء عباسي ضخم في هذا المكان إذ عثرت البعثة على الكثير من بقايا الزخارف الجصية والرسوم الجدارية والفسيفساء الزجاجية وزجاج النوافذ.

طرطوس:

تأسست طرطوس فوق أنقاض مدينة قديمة. وفي عام ١٠٩٩ أصبحت معقلاً للصليبيين ثم استعادها نور الدين الزنكي في ١١٥٢ لكن لفترة قصيرة إذ سرعان مااحتلها الصليبيون وعلى رأسهم الملك بالدوان الثالث الذي سلم المدينة لفرسان المعبد وظلت المدينة بأيديهم حتى سقطت نهائياً بأيدي المسلمين في ١٢٩١م.

وقد ظلت الآثار الشاخصة في هذه المدينة من أكثر الآثار التي تجذب الانتباه على طول الساحل حتى القرن التاسع عشر، ففي ١٨٧١ أنجز السيد راي أول خريطة لآثار المدينة وفي ١٩٢٢ قامت بعثة فرنسية برئاسة إنلارت بعملية توثيق هندسي شامل للآثار المعمارية الشاخصة، وخاصة مبنى الكاتدرائية. أما سور المدينة والابراج فلم يتحراها أحد من قبل.

قامت بعثة المعهد الاثري الالماني برئاسة المهندس براون بعملية توثيق فوتوغرافي شاملة وأنجزت خريطة كاملة بمقياس ١/٢٥٠ تحتوي على كافة الآثار المعمارية فضلاً عن اعداد مخططات ومقاطع تفصيلية لأهم المباني الاثرية.

تتألف المدينة القديمة من قسمين: الاول يضم نسيج المدينة القديمة ويضم الثاني القلعة الواقعة في الزاوية الشمالية الغربية من سور المدينة.

يبلغ طول سور المدينة بالاصل حوالي ٩٠٠ م لم يبق منه شاخصاً إلا حوالي ٢٢٠م موزعة في الضلع الشمالي والضلع الشمالي الشرقي، ويضم هذا الجزء الباب الشمالي وعدداً من الابراج المستطيلة. بيد أنه لم يبق ماثلاً للعيان من مباني المدينة القديمة غير مبنى الكاتدرائية أو كنيسة القديسة مريم. وهي تتمتع بأسلوب قوطي ذي أصل أوربي غربي بحت. وهذه الكنيسة - التي تحولت الآن الى مقر لمتحف طرطوس - لم تكن منعزلة بمفردها في قلب المدينة بل كانت جزءاً من تحصينات المدينة، ويتجلى ذلك في فتحات رمي السهام التي تخترق الجدران الاربعة للبرج الشرقي.

تلتصق القلعة بسور المدينة وهي تتمتع بنظامين دفاعيين، فباستثناء الجانب المطل على البحر يحيط بجهات هذه القلعة المستديرة أربعة خطوط تحصينية تتألف من: خندق خارجي، وسور خارجي، وسور ثان خلفه ثم سور داخلي. وكان البرج الذي يحتوي على الباب الرئيسي للقلعة مزودا بممر منكسر ويقود الى ردهة تحف بها طاقة من كل جانب، وهي تستعمل مسجداً في الوقت الحاضر. وهناك باب آخر في السور الداخلي ويؤدي الى قلب القلعة، يبلغ طول السور الداخلي حوالي ٣٥٠م وكان ارتفاع السور يصل بالاصل الى ٢٥م.

يحتل الحصن (القصر) أوما يسمى بالدونجون مساحة ١٥٧٠ متر مربع، وتبلغ أبعاد المبنى الرئيسي فيه مقدار ٢٠×٢١م

قلعة مصياف:

تقع قلعة مصياف على الجانب الشرقي لبلدة مصياف وهي تحتل هضبة كلسية تحكمت تضاريسها في عدم انتظام الشكل الخارجي للقلعة (شبه بيضوي)

ظلت القلعة من أكبر معاقل الاسماعيلية في سورية الى أن احتلها السلطان الظاهر بيبرس في ١٢٧٣ م، وهي تعتبر نموذجاً للقلاع السورية الجبلية. ورغم أهميتها وحالتها الجيدة لم تلق القلعة عناية الباحثين، وقد قامت بعثة المعهد الاثري الالماني بدمشق بعملية توثيق فوتوغرافي شاملة وبدأت بالمسح الهندسي الشامل لكافة أقسامها وعناصرها

تتألف القلعة من قسمين رئيسيين: قسم مركزي يضم الاجنحة السكنية في طابقين، قسم التحصين الذي يضم السور الخارجي في أربعة طوابق من الممرات الدفاعية والمستودعات وخزانات المياه، وقد نقر جزء من العناصر في قلب الصخر.

حي الصالحية في دمشق:

ضمن إطار الهيئة الدولية لحماية آثار مدينة دمشق قام المعهد الاثري الالماني بدمشق منذ ١٩٨٠ بعملية مسح شامل للآثار المعمارية الاسلامية الشاخصة في حي الصالحية، وقد تمكن من حصر ١٤٢ بناء تاريخياً غير ان ٥٧ منها زال بفعل التدابير البلدية.

وقد وثق المعهد حتى الآن حوالي ٦٠ بناء يعود معظمها الى العهد الايوبي. لكن القليل من تلك المباني يتمتع بأهمية كبيرة والباقي يتألف من أضرحة متواضعة.

قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف في السنوات الاخيرة بأعمال ترميم مكثفة في حي الصالحية، إذ رممت أكثر من ٢٠ بناء كما أدرجت حتى ١٩٨٣ حوالي ٦٠ بناء في سجل المباني التاريخية.

التنقيب في حي الاكراد:

يقوم في الجانب الاخر من حي الصالحية ضريح مجهول الهوية يعرف باسم قبة الاكراد الايوبية (٦×٦م) وفي الجانب الغربي من هذه القبة توجد مقبرة تحتوي على شواهد قبور قديمة لكن معظمها مغطى بطبقة من الجص.

أجرى المعهد الاثري الالماني بالاشتراك مع المديرية العامة للآثار والمتاحف في ١٩٨٣ أسباراً استكشافية في المقبرة المذكورة الهدف منها العثور على نقوش كتابية في شواهد القبور علها تسلط الضوء على هوية هذا الضريح وتاريخ بنائه. وبالفعل كشف النقاب عن نص كتابي يؤكد استعمال الضريح في العهد المملوكي (بين ١٢٥٣ و١٣٦٠ م) كما تم العثور على نص آخر يشير الى استعمال الضريح في العهد الايوبي (١٢٣٩م)، يضاف إلى ذلك التوثيق الفوتوغرافي والهندسي للضريح وتوابعه.

حمام منجك في بصرى:

يقع حمام منجك إلى الشرق من الجامع العمري في بصرى، وتبلغ أبعاده حوالي ١٤,٣٠×١٣م، وقد قام المعهد الاثري الالماني بالاشتراك مع دائرة آثار بصرى بتوثيق فوتوغرافي شامل لهذا الاثر وأجرى أسباراً متفرقة في جوانبه. يتألف البناء من قاعة المشلح التي كانت تعلوها قبة ثم زالت ومن عدة غرف للاستحمام التي تحجبها مبان محدثة. تتمتع الواجهة الشمالية بحجارة بازلتية صقيلة ويتخللها مدماك زخرفي من الحجر الكلسي الابيض، أما واجهات الاضلاع الاخرى فهي مبنية من حجارة أقل اتقاناً. وقد أبانت التنقيبات في الضلعين الشرقي والجنوبي الاجزاء السفلية من الواجهتين كما ظهر الباب الرئيسي الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية للحمام. وفي هذا الباب تتناوب المداميك الكلسية البيضاء مع المداميك البازلتية السوداء، يفضي الباب الى دهليز ينتهي بمدخل يقود الى قاعة تحف بها أربعة ايوانات محورية. يدور حول الجدران الداخلية لهذا الجزء الرئيسي من الحمام مصطبة للجلوس، ويتخلل الجدران كوات لها أقواس، وتقوم بركة مستطيلة في وسط القاعة. تتمتع الجدران والارضية بالمداميك المتناوبة الالوان. بالرغم من غياب اللقى الاثرية التي قد تساعدنا في تحديد تاريخ هذا الحمام، إلا أن العناصر المعمارية وأساليب تنفيذها تشير بوضوح الى أواخر العهد الايوبي والى العهد المملوكي. فالمداميك المتناوبة الالوان شاع استعمالها لاول مرة في أواخر العهد الايوبي ثم صارت من مميزات العمارة المملوكية والعثمانية فيما بعد، كذلك فإن ارتكاز القبة على مضلع اثني عشر بدلاً من المثمن لامثيل له الا في المباني المملوكية التي نشأت منذ القرن الرابع عشر ميلادي وما بعد، يضاف الى ذلك اكتشاف ثلاث قطع حجرية (سواكف، نوافذ) تزودنا بمعلومات دقيقة عن تاريخ البناء وهذه القطع الثلاث معاد استعمالها في دار سكنية مجاورة. وهي تحتوي على شعارات مملوكية وعلى جزء من كتابة تذكارية باسم نائب السلطنة منجك اليوسفي (١٣٦٨ - ١٣٧٤ م).